الفصل الثاني عشر

كعبة نجران

قد يكون عرض وادي حبونا – وهو مميز عن مجرى السيل المؤثر – أكثر من الميل الواحد، غير أنه من الصعب تحديد الموقع، على الجانب البعيد، الذي يختفي منه الوادي بلا حس في السهل الرملي المستوي. كان سيرنا جيداً في كل من الوادي والسهل الذي يكون جزء منه فوق رمال ثابتة، وجزء آخر فوق مساحات من الحصى (رقة)، وتتخللها من فترة لأخرى هضبات رملية صغيرة، ربما معلَّمة آثار مساحات قديمة لمجرى السيل، وتحيط بها جنبات الطلح والعبل.

قطعنا مسافة ستة أميال فوق هذا الضرب من سهول الأودية إلى أن وصلنا إلى تلال على الجانب البعيد وتوقفنا عندها على ممر يقع بين سلسلتين منخفضتين من جرانيت أسود وبازالت. كانت هذه السلاسل، إلى اليسار، تتكون من مختلف، وحليث وضبعة، بهذا الترتيب تجاه الجنوب بينما برزت تلال أكلب القارورية الشكل، إلى البعيد، في الصحراء العظيمة ناحية الجنوب الشرقي، وعلى يسارها حمير وسلسلة حميقة المنخفضة إلى اليمين. يسمى السهل المغطى بالشجيرات الخفيفة والذي يمتد من عند الجانب الأيمن لوادي حبونا تجاه تلال أكلب باسم الجضام. كانت سلسلة حضب غير واضحة تقع بعيداً ناحية الجنوب، مكوِّنة الجانب الأيسر لسفح منخفض لوادي نجران. وقفت عن قرب، وعلى الجانب البعيد لسهل جضام سلسلة تسلال والتي كانت هدفنا الفوري أثناء عبورنا لسهل

درة الداخلي، الممتلئ بعشب النصي الوافر، الجاف، في اتجاه الجنوب على امتداد طريق السيارات الواضح الذي ظل محازياً للحافة الشرقية للتلال.

وصلنا إلى بئر تسمى برق الدرة، بعد أن قطعنا مسافة عشرة أميال منذ مغادرتنا الحصينية. كان بارزاً في السهل والذي من عنده استطعنا أن نرى كل مواقع أكلب (خمسة أو عشرة منها) في الصحراء. يتجه طريق نجران من هذا الموقع ناحية الجنوب الغربي مطوقاً التلال إلى قمة تسمى شعثة، والتي من عندها يميل تدريجياً إلى اليمين ويدخل وادي نجران. تقع تسلال، وهي سلسلة معتبرة، كما تشاهد من هذا المكان، ناحية الجنوب الشرقي عبر سهل درة - جضام. قيل لنا أن وادي نجران ينساب ماراً ببئر خضرة وعلى امتداد سفح حضب يعبر بين تلال نويدرة ورويكبة إلى الصحراء ماراً بأقصى بقعة جنوبية من نقاط أكلب. ويقال أيضاً أن مجراه، الممتلئ بالغطاء النباتي الرمادي - الأخضر والمكوّن من الحمض والطرفاء... إلخ. يمكن مشاهدته من مسافة تصل إلى ٥٠ ميلاً إلى الشرق من خضراء، ثم يذوب بعد ذلك في الرمال العظيمة. أمكننا رؤية سلسلة برك المنخفضة في بطن وادي نجران أعلى من بئر خضراء، تجاه الجنوب الغربي من برق درة وكذلك رؤية العديد من التلال الأخرى على الجانب البعيد من الوادي. يقول مثل سائر عن برك: «إذا جاك الحيا فارفع الصوت وأعلن من رأس برك منادى».

أستطيع أن أرى تل تنصب الداكن -البعض يسميه خطأ جبل سلة- إلى البعيد في الصحراء، عند الطرف الشرقي لتسلال، ويعتبر أقصى بقعة شرقية للحدود اليمنية السعودية، وقد تم تعليمه منذ سنتين قبل زيارتي، بواسطة لجنة حدود مشتركة، والتي لم تقم بالفعل بزيارة تنصاب لتتوج رأسه بركام من

الحجارة. كان الخط الحدودي الفعلي هو الوسط الباهت الممتلئ بالرمال لوادي سلة، الذي يمر بين تنصاب على جانب الوادي الأيمن والهضبتين الصغيرتين اللتين تسميان أبرقين، وقد برز رأساهما فقط خارج الرمل الرهيب. يبدو أن وادي سلة ما هو إلا الامتداد الصحراوي لوادي الفرعه، وهو الوادي التالي ناحية الجنوب من نجران. لا يوجد ما يمكن رؤيته إلى الشرق من الشريط الذي يربط بين حبونا، وضبعة، وحميد، وأكلب، وتنصاب -اللهم إلاَّ قفار لا نهاية لها- هو الامتداد الميت المستوي للربع الخالي.

وصلنا إلى الطرف الشرقي من تسلال بعد قيادة سريعة وجيدة لمسافة أربعة أميال عبر سهل الدرة، الذي يندمج هنا في جضام بما عليه من شجيرات خفيضة وهضبات رملية عليها شجيرات أراك. يتخذ سهل جضام، الذي يمتد من وادي نجران، مظهراً يدل على أنه جزء من دلتا الأخير، وربما يكون هذا هو الحال. تنهي صخرة تسلال تجاه الشرق عند جدار عمودي ارتفاعه حوالي ١٥٠ إلى ٢٠٠ قدم ويبلغ طوله ما يربو على ربع الميل. يتجه الصخر إلى الخلف من عند نهايته الجنوبية، وهي أقل اعتدالاً وأكثر مصادمة، وفي اتجاه جنوب غربي ولمسافة ٢٠٠ ياردة.

وصلنا إلى مقبرة معتبرة عند نهاية هذا الجانب كانت تحتوي على قبور عديدة مبنية من بلكات جرانيتية غير مشذبة. ارتفع البناء الفوقي لأكبر القبور إلى ثلاثة أقدام وقياسه حوالي الخطوتين، ومشتملاً على طبقات عديدة من حجارة، بينما كانت بقية القبور منخفضة، وكان بعضها بيضاوياً، والآخر مستطيلاً وكان أسلوب البناء واحداً. كان وضع المقبرة وكل القبور التي تحتوي عليها عند زاوية ٢٥٥ درجة إلى ٧٥ درجة في اتجاه وجه الصخرة، وبدا القبر الرئيس كأنه المركزي من بين مجموعة من تسعة قبور هو الأقرب منها إلى الصخرة -عدا أن قبراً مربعاً صغيراً

وآخر مستديراً، قد تعارض بينه وبين قاعدة الصخرة، بينما برز اثنان آخران (كلاهما صغير) من عند الخط الأمامي بالقرب من الزاوية الشرقية للمجموعة-. كان عدد القبور، في الإجمالي في هذه المقبرة، حوالي ٣٠ قبراً والتي تواصلت بعد مسافة خالية يقدر بـ ٢٥ قدماً مع مقبرة أخرى، تحتوي على حوالي ٥٠ قبراً في الترتيب والاتجاه نفسه، وهي قبور لها الشكل العام نفسه كالبقية، غير أنها أقل طموحاً، ومواجهة للصخرة.

انتهى هذا عند الزاوية الجنوبية الغربية للصخرة، والتي يمتد سطحها الآن تجاه الشمال الغربي مسافة ١٣٠ ياردة إلى حيث توجد أكثر السمات إثارة ولفتاً للنظر في تل تسلال. وفجأة وجدنا أنفسنا في مواجهة ما يمكن أن نعده «الطريق الموكبي»[(١)]. كانت قمتاه المستدقتان منحنيتين على قاعدة الصخرة على كلا الطرفين في شبه دائرة ذات قطر يقارب ١٧٤ خطوة (قل ١٤٥ ياردة). يجري المطاف (الطريق الموكبي) على الحافة الخارجية لشبه الدائرة كانت معلَّمة ببلكات متوسطة الحجم أو صغيرة من حجارة موضوعة على جانبي الممشى، الذي كان عرضه أربع خطوات في المتوسط، غير أنها، هنا وهناك قد اختل ترتيبها بسبب السيول أو بفعل الإنسان.

كان الشكل العام للطريق الموكبي، على أية حال، واضحاً بما فيه الكفاية. يوجد عند طرفه الغربي وعلى مسافة ٢٥ خطوة (قل ٢٠ ياردة) من عند قاعدة التل، مساحة مستطيلة تقريباً، طولها ثلاث ونصف خطوة على خط اتجاه شرق –

(١) يمكن أيضاً ترجمة Proccssionalway (بالطريق الجنائزي) حيث كان الكهنة يقومون بأداء جميع مراسم الدفن بواسطة هذا الطريق الذي يرتبط دائماً بمعبد ومقبرة. (المراجعون).

غرب، وخمس خطوات تجاه شمال – جنوب. وكانت محاطة ببلوكات حجرية، بدأ هذا وكأنه مكان محجوز أو غرفة خاصة أو قد يكون معبداً، على الرغم من أنه لا يوجد دليل على أنه كانت هنالك مبانٍ من أي نوع. قد تكون هذه السمة هي النهاية الطرفية للقمة المستدقة الغربية «للطريق الموكبي» والذي كانت قمته المستدقة الشرقية متناثرة بسبب الصخور المتساقطة وآثار تشويش أخرى عليها، مما لم يدعم قناعتي باحتمال وجود «غرفة» مماثلة أخرى عند تلك النهاية.

لاحظت على أي حال، في حينها، أن هنالك مساحة محجوزة أو حجرة متطابقة عند هذا الطرف أيضاً، وداخل شبه الدائرة ومساحتها ٣ x ٥ خطوات. علماً بأن الحجارة المكوّنة للشكل العام قد اختل ترتيبها بشكل كبير. لاحظت، على أية حال، من عند «الغرفة» الأخرى أنه وعلى بعد مسافة ٥٠ خطوة من نقطة الملاحظة، والتي تكون زاويتها شمال – غرب تمس طرف الطريق على خط يجري شرق الجنوب الشرقي، ويكون بذلك، موازياً تماماً لقاعدة التل، كان هنالك جلمود ضخم ارتفاعه تسعة أقدام، وطوله أربع خطوات ونصف وعرضه خطوتان وطرفه الشمالي يبعد ٣٨ خطوة من عند قاعدة التل. ويقع من حوله، على الجانب الغربي، وعلى النصفين الغربيين للجانبين الشمالي والجنوبي –ولكن ليس على الأجزاء الشرقية إطلاقاً– شريط ضيق من صخور صغيرة غير مشذبة.

لم يعد لديَّ أي شكوك بأنني، حقيقة، قد اكتشفت كعبة نجران المفقودة منذ القديم، وبها نصف المطاف. إن الصور التي التقطت في ذلك الوقت تؤكد هذه الصفة للمنظر، وفي إحدى هذه الصور يبدو من المؤكد أن وجه جلمود الكعبة قد كان يحمل في تلك الأزمان القديمة، شكلاً مرسوماً أو منحوتاً بصورة بسيطة لإله ما. والذي ربما كان هو ما قد لاحظته في حينها كضرب من لون متغير على سطح

الصخـرة. توجد ثلاث كـعبات مـعروفـة للعرب أيام الوثنيـة القديمة، قـبل ظهور الإسلام – كعبة مكة، وهي أعظم الثلاثة، وكعبة صنعاء، قيل إنها لا تزال موجودة في مسجـد غمدان، غير أنني لم أسمع تأكـيداً لهذا من شاهد عيان ذي صـلاحية وسلطة وأخيراً كعـبة نجران التي اكتشفتهـا أنا في ٢٥ يونيو ١٩٣٦م. ذكرت ببعض الجهات الرسمية كعبة رابعة قيل هي ذو الخلصة التي تحدثت عنها مسبقاً في موضوع زيارتي إلى خمـيس مشيط، وبلا شـك فإن وجود الكعـبة والطواف حولهـا كانت ظاهرة شائعة في الحضارات العربية الوثنية القديمة، على أنه لم تدم أي من البنايات التي أقيمت لـتضاهي الكعبة المشـرفة مثل: (القُـلَّـيْـس في اليمـن)، والتي سبقت الإسلام للقيام بدورها في الطقوس الدينية عـدا الكعبة المشرفة في البيت الحرام بمكة المكرمة، والتي يعود تاريخها إلى النبي إبراهيم.

يجري سطح تسلال، من عند قـمة الجبل المستدقة المتجـهة جنوب – شمال، لطريق الاحتفال، –الذي كان محيطه حسب قراءة عداد سيارتي، ٢٠٠ متر– على زاوية ٣٠٠ درجة لمسافة ٥٠٠ ياردة، ثم يدور على زاوية ٣٤٥ درجة لمسافة ١٠٠ ياردة حيث يصل المرء بعدها إلى علامات أساس مـعقّدة وبارزة وغريبة، والتي قد تكون قبوراً أو مخططات لغرف معبد. والتي يقود إليها ممشى معبّد أو مخطط على جانب التل، الذي يترفرف في تتابع من درجـات سلم عريضة على الجانب الغربي من عند القمة إلى حـيث توجد مساحة مـستديرة عند مستـوى أقل، ومنها يجري الممشى المعبّد عند زاوية ٢٩٥ درجة إلى مسافة ٥٩ خطوة إلى وسط مجمع الغرف –أو مهما كـان المقصود منها– التي قد ذكرت أعلاه. كـان الاتجاه من عند الممشى الرملي الأسفل إلى القـمة بزاوية ١٢٤ درجة وكانت المسافـة تزيد قليلاً عن نصف الميل. يقع الطرف الشرقي لـسلسلة تسلال على مسـافة نصف الميل. وبذلك تكون

المسافة الكلية ميلاً واحداً، عند زاوية ٥٠ درجة. يحمل جزء آخر خارجي للسلسلة هذا الممشى الأخير عند زاوية ٣٠٠ درجة مسافة ربع ميل.

يبدأ مجمع الدوائر أو الغرف من قاعدة هذا الجزء من السلسلة ويطل من تجاه الغرب تقريباً. توجد عند قاعدة التل دائرة، من تسع بلكات من الحجارة، قطرها أربع خطوات وتحيط بحجر واحد كبير في مركزها. يأتي ناحية الغرب من هذه فجوة مسافتها عشر خطوات معترضة وفاصلة لها من صف مزدوج من الحجارة طوله أربع عشرة خطوة وغالباً ما يكّون ممشى يقود غرباً إلى دائرة أخرى، معلَّمة بحجارة وقطرها ثلاث خطوات. تفصل فجوة مسافتها ثلاث خطوات هذه الدائرة من «غرفة» مستطيلة ذات ثلاثة جوانب معلَّمة أما الجانب الرابع فهو مكشوف، كانت أبعادها خطوة واحدة تجاه الشمال والجنوب، وثماني خطوات تجاه الشرق والغرب. وتقع مباشرة إلى الجنوب من هذه دائرة أخرى، معلمة بلا نظام بحجارة صغيرة وقطرها خطوتان. تنفصل، أخيراً، الدائرة الوسطى في الصف الشمالي بفجوة طولها سبع عشرة خطوة عن دائرة أخرى قطرها ثلاث خطوات على اتجاه مئة وخمس عشرة درجة في خط مستقيم تماماً مع الممشى المعبَّد الذي ذكرناه سابقاً والذي ينفصل عنها بدرب جمال حديث.

توجد على الجانب الشمالي للممشى المعبَّد دائرة أخرى من الحجارة، قطرها ثلاث خطوات، تقع قريباً من درب الجمال، وغرفة أخرى ثلاثية الجوانب يبلغ طولها أربع خطوات ومكشوفة تجاه الشمال الشرقي، وقريبة منها من جهة الجنوب الشرقي. أعترف أنني لم أتمكن من تكوين أية تخمين لمعنى هذه البقايا الغريبة لاحتفالات قديمة أو معرفة الغرض منها.

كانت قمة تسلال، مكوّنة من صخور شبيه بقرص العسل ذات أحواض طبيعية ممتلئة بالمياه لعدة أشهر بعد موسم أمطار جيد، وربما قد استخدمت موقعاً لذبح القرابين (المكان العالي) أو معبد، غير أنني لم أجد من العلامات ما يدعم هذا الاستخدام. كان ارتفاعها ٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح السهل المجاور وسيطرت على منظر ممتاز من كل الجهات بما في ذلك الطريق شبه الدائري، والمقبرة ومعالم تذكارية أخرى تقع «عان» سفح السلسلة.

لا يمكن رؤية واحة نجران الفعلية، غير أن مجرى الوادي من عند مضيق عان أزلم، الذي يخرج من خلاله، إلى أن يدخل الدلتا، إلى أسفل، عبر برك وخضراء إلى الصحراء، فقد كان واضحاً. أن تسلال مكان يتحاشاه الناس الذين يؤمنون بالخرافات في هذه الأجزاء، خاصة أثناء الليل، وقد انزعج دليلي حسن الذي صحبني من الحصينية وذلك حينما طلبت منه أن يقف إلى جوار القبر الكبير في المقبرة لألتقط صورة فوتوغرافية له. اعترف لي حسن في وقت لاحق أنه كان يخشى إزعاج الجن له والذين يعتقد أنهم يسكنون مثل هذه الأماكن.